

المواقف . لم يمض غير بضعة أجيال حتى سقطت مملكة اسرائيل بيد آشور وتعرض التابوت لمصير مشابه . وتكرر الحدث في اورشليم وكأننا بالقدر يسخر من محاولة الانسان الخلودية فيمني الشعب الذي تمسك بخلوده وخلود الهه بأقصر الأجل . على يد الفلسطينيين سقط الرب في المعركة ، وعلى يد البابليين سقط الشعب . ويبدو لأول مرة ان صدمة سبي بختنصر هي الصدمة التي غرست الاثم ، وهي كذلك لو لم تكن أقرب الى الشعور الواعي . ان من الضروري لنا ان نفتش عن البذور في الاعماق المنسية من هذا التاريخ لنلتقي بحادثة بن عيزر . السبي هو الحدث الذي أطلق شجون الحادثة من عقالها فسمعنا العويل نغمة مكررة على السنة حكماء اسرائيل .

يبدو ما أوردناه باقتضاب تأملا نظريا صرفا وقد يبدو للبعض مغاليا في افتراضاته وتعليلاته . ولكن قبول التفسير او رفضه لن يؤثر في حقيقة الوقائع . لقد كانت الوقائع الموضوعية لظاهرة الاثم وذهانها الكآبي هي البداية ومنها خرجنا الى التعليل .

تعطينا الصور والرموز التي انهالت من السنة شخصيات العهد القديم الأبعاد الاثمية المعذبة بوضوح . تطالعنا هنا صور البغاء والعهر والمهانة والحقارة والقتل والغائط والدم والجيفة . عندما تزوج النبي هوشع بعاهرة لم يجد غير الاشارة الى امر الرب بأن يتزوج « زوجة زنى وينجب أولاد زنى لان البلاد اقترفت زنى عظيما » (٧) . وارتبط عذاب هوشع بخيانات زوجته بحالة اسرائيل . وعمد حزقيال بعده الى حلق شعره (رمز القوة وحلقه رمز حدادي) وأكل الغائط . ودأب ارميا على تطويق رقبتة بنير دابة وأحس بأن الرب قد اغتصبه كما تغتصب البنت البكر . وأوقع زكريا جروحا مؤلمة على بدنه .

ووجد الاثم تعابير متنوعة على لسان اشعيا : « صرنا كنجس وأعمالنا كثوب بال . لقد ذبلنا كالورقة وأصبحت آثامنا كريح تحملنا بعيدا » . وتتوالى الأفاعي جنباً الى جنب مع مشاهد الموت والعدم وعمة القبور وضباب الموتى . يجسم النبي اثم المجموعة قائلا « نفتش عن حكم بحقنا فلا نجد وعن خلاص لانفسنا فلا نصبه لان ذنوبنا استفحلت ووقفت تشهد ضدنا » (٨) . هناك كثير من الشكوك حول كتابة سفر اشعيا ويذهب الظن الى ان أكثر من شخص قد كتبه . ويعطي ذلك صورته الذهانية الملتخولية صفة فولكلورية واسعة تعبر عن ضمير الشعب ككل .

وقد وصف فببر الحالة النفسية للزعماء الروحانيين بقوله : « الواضح ان الكاهن المعتاد في اسرائيل كان يجد نفسه في حالة توتر مستمر ويستغرق في تأملات كنيية تصبح خلالها أنفه الأشياء اليومية العادية الغازا مخيفة » (٩) .

والواقع ان حياة شخصيات العهد القديم تطالعنا باستمرار بأعراض الطيرة والهلع والقلق والهوس والتوهامات السمعية والبصرية والاحلام والكوابيس والتصرفات الشاذة والانتقال السريع المفاجيء بين شعور بعظمة وأهمية وشعور بتفاهة وحقارة وأخيرا الشعور بحمل رسالة مسؤولة تجاه البشر واداء واجب المنقذ . كل ذلك من الاعراض العيادية المألوفة في الكآبة . وظلت الاضطرابات النفسية من مميزات زعماء اسرائيل من شاؤول الى شبتاي تزفي وأخيرا هرتزل . ويعطينا أبو الصهيونية نفس التذبذب بين القداسة والدناسة وتضم يومياته النصف المألوفة المعبرة عن الحقارة « نحن جنود رديئون لاننا عارون عن الشرف » . وأيضا « الجمهورية لا تصلح لنا نظرا لنقص أخلاقنا » . ويذكرنا بأفاعي اشعيا في مقطع يصور فيه اليهود بالعقارب (١٠) .

وقد بذلت محاولات اصلاحية للاعتاق من الدوامة حديثا في الكينيس الاصلاحية وتقدمها بدعوة ارميا ولكن الذهان والظروف الموضوعية كانت أقوى من ذلك فقدر